الناقة فى الشعر الجاهلى

حمود الدغيشى

الملخص

يناقش البحث قضية الناقة التى لم يكن دورها فى الحياة الجاهلية يقتصر على الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية فحسب، بل قامت بدور خطير فى الجانب الدينى، إذ شكلت الناقة عند العرب قبل الإسلام عقيدة دينية، من هنا يناقش البحث الطقوس العقدية فى الناقة التى كان يمارسها العرب فى الجاهلية.

Convalescents in Jahili poetry

Hammood Al-Daghishi

Abstract

This research studies the role of convalescents in Jahili(pre-Islamic) life in the social ،economic ،military and religious domains the convalescent represented a fundamental religious creed and many rituals performed before the rise of Islam.

الناقة في الشعر الجاهلي
دراسة في ضوء علم الميثولوجيا

حمود الدغيشى

ارتبطت الإبل منذ القديم بالإنسان العربي، وكانت علامة بارزة في صحرائه الشاسعة المترامية الأطراف، لما قدرتها الفائقة التي تناسب حياة الصحراء، من سرعة وصبر على العطش والجوع، ومعرفة الطرق، وحمل الأثقال وغيرها، وصنع العرب من جلدها وأوبارها بيوتهم وأكسيتهم ونعالهم، واغتذوا من لحمها ولبنها، وكانت رفيقة دربهم في السلم والحرب وفي التجارة والنزهة، وكانت المال الذي يتعاملون به في دفع دياتهم ومهورهم وحقوقهم وشعائر حجهم وطقوسهم الدينية، وكان الاقتصاد العربي الجاهلي يعتمد في أغلبه على الإبل، وبالمقابل كانوا يحافظون عليها ويستكثرون من أولادها. وقد نـوّه القرآن الكريم بالإبل ومـنَّ على العرب بها فقال تعالى: " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت" [1].

ولم يقتصر دور الناقة في حياة العرب الجاهليين على ذلك فحسب، بل كانت تشكّل في حياتهم الصاحب والصديق الذي يبثونه وجدانهم وأشواقهم وهمومهم، واتخذوها معادلا موضوعيًا لأحوالهم النفسية وتقلباتهم العاطفية، وغدت فردًا من أفرادهم يشاركونه قضاياهم الاجتماعية والعاطفية الخاصة.

الناقة والدِّين:

- ولعل أخطر دور قامت به الإبل في حياة العرب الجاهلية هو دخولها الحياة الدينيـة والعبـادة الوثنيـة، ولـيس هنـاك مـن دور أخطـر وأعظـم مـن الـدور العقـدي فـي حيـاة الإنسـان سـواء أكـان فـي القـديم أم الحـديث. ولعـل البحـث الحقيقـي عـن فكـر الإنسـان الجـاهلي يجـب أن ينطلـق مـن الأسـطورة التـي يتجسـّد فيهـا الجانـب الـديني، والتـي تحكمـت فـي مجـرى الحيـاة الجاهليـة ووجـّهت الإنسـان الجـاهلي لممارسـة الطقـوس الشـعائرية. فقـد عبـد بعـض العرب الإبل واتخذوها إلها، فمما يُروى في هذه العبـادة أن وفـدا مـن قبيلـة " طـيء " جاء إلى الرسول (ﷺ) فقال لهم: إني خير لكم من العُـزَّى ومما حازت مَنَـاع. ... ومن الجمل الأسود الذي تعبدونـه من دون الله - عزّ وجلّ - [2].

(*) سلطنة عمان / كلية الرستاق

ويبدو من الرواية أن اللون الأسود للجمل كانت له ميزة أسطورية معينة في اختيارهم له إلها. ومما يُروى – أيضا- في تاريخ العرب في الجاهلية أنه كان لتميم بعيران مجللان مقرونان مقيّدان في يوم الزّورين، تركوهما بين الصّفّين، والزّور كما يُعرف هو كلّ شيء يُتخذ ربًّا ويعبد من دون الله، وقالوا لا نولّي حتّى يولّي هذان البعيران، فأخبرت بكر عمرو بن قيس بقولهم، فقال: أنا زوركم وبرك بين الصفين، وقال: قاتلوا عني ولا تفروا حتى أفرّ، والتقى القوم فاقتتلوا قتالا شديدًا. .. وانهزمت تميم، وأخذت بكر الزورين فنحروا أحدهما فأكلوه، وافتحلوا الآخر وكان نجيبا [3]. فقال رجل من بني سَدوس، يذكر هذه الحادثة ويفتخر بانتصار قومه على قبيلة تميم وزوريها [4]:

يا سَلْم إن تسألي عنَّا فلا كُشُفٌ عند اللقاءِ ولسنا بالمقاريفِ

نحن الذين هَزَمْنا يومَ صبَّحنا جيشَ الزّورين في جَمع الأحاليفِ

كما ذكر تلك الحادثة الأغلب بن جشم العجلي، مفتخرا بزَوْرهم عمرو بن قيس مقابل زَوْريْ تميم اللذين هُزما، يقول[5]:

جاءوا بزَوْريْهم وجئنا بالأصمْ شيخٌ لنا قد كان من عهد إرَمْ

فكرَّ بالسيفِ إذا الرمحُ انحطمْ كهمَّةِ الليثِ إذا ما الليثُ همْ

وتشير الروايات إلى عبادة (السقب) عند بعض القبائل، فقد روي أن عمرو بن حبيب بن عمرو بن شيبان الموصوف بذي الكيود أغار على بني بكر، وكان لهم (سقب) يعبدونه من دون الله، فأخذ ذلك السقب فأكله [6].

كما أن العرب عبدت الحجارة البيضاء اللون، وكل ما لها علاقة بالإبل ولبنها[7].

وتقول إحدى الروايات إن " الزباء " ناقة أبي دؤاد الإيادي، وهي ناقة ميمونة، كانوا يتبركون بها، أرسلت في سنة جدب أصابت إيادًا وفرقتهم وأزالتهم عن مراعيهم وكذلك يفعلون إذا أرادوا نجعة، فخرجت تلك الناقة تخوض العرب، حتى بركت بفناء الحارث بن همام، فنزل الشاعر وأهله في جواره[8].

وكانت عبادة الإبل في كثير من الأحيان تُخصص، فقبيلة طيء يخصّون من الإبل: الجمل الأسود، وكان بعضهم يخصّ الناقة المنجاب أو الفحل الكثير النتاج بالإكرام والتقديس، أو يخص البعير الذي أنجاه من مشقة أو سفر، وتتخذ صورة التقديس مظاهر مختلفة، منها إباحة الماء والمرعى، أو الإهمال والتسيب من الركوب والاستخدام أو عدم الذبح[9].

ولعل مظاهر تقديس الإبل واضحة في تحريم أكل لحومها، وفي تحريم الانتفاع بظهورها وألبانها ووبرها، وقد يحرمون لحومها على النساء فقط. وقد أدرك الإسلام ما

في هذه العقيدة من الفساد، فندد القرآن الكريم بعقائدهم الباطلة، قال تعالى: ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ [10]. وقال – أيضا- : " وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومُحرَّمٌ على أزواجنا. . "[11].

الناقة والنجوم:

وتشير الأخبار إلى قداسة الإبل في مذهب " الحرنانية الكلدانيين " إذ كان لهم قرابين يذبحونها للكواكب، وهي الذكور من البقر والضأن والمعز غير الجزور، وقد نهوا في مذهبهم عن أكل لحوم الإبل[12].

ولقد كان لعبادة النجوم في ديانة عرب الجنوب مكانة عظيمة، غير أن هذه المكانة لم تكن مختصة بحمير وسبأ، فقد ذهب بعضهم إلى أنها ديانة العرب عمومًا أو حتى ديانة الساميين بكاملهم، إنما كانت بالكلية مرتكزة على عبادة الأجرام السماوية، ويرى بعضهم أن البيت الحرام نفسه من البيوت التي خططت لعبادة الكواكب السيارة السبع[13].

وعرف عرب الجاهلية الأولى عبادة الكواكب بالشكل الذي نجده في ديانات الشعوب الأخرى المجاورة، وفيه تتألف عبادة الكواكب من ثالوث سماوي هو: القمر والشمس والزهرة، ويؤلف هذا الثالوث الإلهي عائلة إلهية صغيرة يقوم فيها القمر بدور الأب، والشمس بدور الأم، والزهرة بدور الابن أو الابنة[14].

والقمر هو الإله الأكبر أو الإله الأب، واتخذ له " الثور" رمزًا. . وقد نصّ على اسمه في الكتابات، إذ قيل له: ثـور[15].

وتعبد العرب للقمر في صورة أصنام [16]. ... والشمس هي الآلهة الأم، عبدها العرب وأقاموا لها المعابد والهياكل وأقسموا بها، فقالوا في قسمهم " لا ومجرى الإلهة " والإلهة من أسماء الشمس، وسمّوا بها وعرف من أسمائهم عبد شمس وعبد شارق[17].

وكان للشمس عند العرب صنم، لقوم من عذرة[18].

وقد تعبدت قريش " للعزّى " رمزًا عن كوكب الزهرة[19]. ومنهم من عبد الدبران[20].

ورمز الجاهليون بالإبل عن نجوم كثيرة، فالناقة العنتريس التي وصفها الشعراء لها مثال في السماء، وفي المجرّة بحيال السمكة المعدودة في المنازل، من ناحية الشمال، خمسة كواكب بيض نيّرة، أربعة منها مصطفة وواحد فوقها يقال له الكفّ الخضيب. وهي كفّ الثريا المتوسطة. ويقال لها سنامُ الناقة، لأنها في خِلقة السّنام.

والناقة على خِلقة الناقة النجيبة الضامرة، الدقيقة العنق الصغيرة الرأس، وعنقُها

كواكبُ صغارٌ متناسقة، ابتدأت من السّنام، ثم هبطت حيال السَّمكة، ثم ارتفعت ارتفاع العنق، واتّصل بها الرأسُ، وهي أربعة كواكب متقاربة، أحدها في وسطها.

وتحت الكفّ الخضيب كواكب كثيرة غيرُ بيّنة الانتظام هي جُفْرةُ الناقة، أي معظم وسطها. وهناك كوكب سحابي كأنه لطخةٌ يُسمَّى مِعْصَمَ الثريا. ومنهم من يجعله وَسْماً في فخذ الناقة[21].

وقد تصور الجاهليون السماء مطيّة تشدّ عليها الطنافس تحت الرّحل، فقال أمية بن أبي الصلت[22]:

شَدَّ القُطوع على المطايا ربُّنا كلٌّ بنعماءِ الإلهِ مُقَيَّدُ

وقد سمّوا فطيم الإبل باللطيم، لأنه يفصل عند طلوع سهيل، ويستقبله الراعي به ويحلف أن لا يذوق قطرة لبن بعد يومه ذلك، ثم يصرّ أخلاف أمّه كلها، ويفصله عنها. ويقولون إذا طلع سهيل أخذ الراعي الفطيم، وقال له، أترى سهيلا واللهِ لا تذوقُ عندي قطرة، ثم يلطم خدَّه ويُرسله، ثم يَصُرُّ أخلافَ أمِّهِ كلها يفصلُهُ عنها... فيصير ذلك الفصيلُ مؤدَّبا[23].

فالفصيل عندما يستقبل نجم سهيل يأخذ من الإله الحقيقي أو من المرموز الأدب ويقبل الفطام، لأنه كبر واستحقَّ أن يكون رمزًا للمعبود " سهيل " وهو يعي معنى هذا الاستقبال ويؤثر فيه. والجاهلي كان يؤمن بأن فعله يحقق نتائج مرضية، فيلطم الرمز بحضرة المرموز إليه، والإله المعبود " سهيل " يؤثر في رمزه فيقبل الفطام ويصبح مؤدَّبا[24].

وقد ورد أن " طيئا " قد عبدت الجمل[25]. وأنها قد عبدت سهيلا[26]. وليس الجمل في اعتقادهم إلا رمزًا للمعبود الأكبر، جمل السماء: سهيل[27].

ويذكر المرزوقي أن العرب يعتقدون أن سهيلا كوكب ذكر نكاح حريص عليه، وربما طلع في الليلة الواحدة مرتين وغاب مرتين، ويقال: غيبته بعد طلوعه لدنوّه من كوكبتيه وصاحبتيه[28].

ويتكرر منظر " سهيل " في أحاديث الرحلة، كأنه النجم الساهر على سلامة الراحلين، يقول المتلمس الضبعي[29]:

حَنَّتْ قَلوصي والليلُ مُطَرِّقٌ بعدَ الهُدُوِّ وشَاقَتْها النَّواقيسُ

وقدْ ألاحَ سُهَيْلٌ بَعْدَمَا هَجَعُوا كأنَّهُ ضَرَمٌ بالكفِّ مَقْبُوسُ

ويقول عبيد بن الأبرص[30]:

تَخْتَرِقُ البيدَ والفَيَافِيَ إذْ لاحَ سُهَيْلٌ كأنَّهُ قَبَلُ

ويقول الشـــمَّـــاخ[31]:

تَـحِنُّ على شَـطِّ الفُـرَاتِ وقَـدْ بَدَا سُهَيْلٌ لها من دُوْنِـهِ سَرْوُ حِمْـيَـرَا

ومن عادة بعض العرب ممن يعبدون " كوكب الصباح " في تقديم القرابين إليه أنهم إذا لم يقع في يدهم أحدٌ من الأسرى أن يضحّوا بناقة من العيس خالصة البياض، فينيخونها، ويدورون حولها ثلاثا، ثم يتقدم كاهنهم أو زعيمهم بكلّ رونق، وهم يتغنّون بأغانيهم، فيضرب بسيف أوداج الناقة، ويتلقى دمها فيشربه، ثم يركض الباقون، ويقطع كلّ منهم قطعة من الذبيحة، فيأكلونها نيئة، ويسرعون في ذلك لئلا يبقى شيء من الجزور حتى الجلد والعظم، عند طلوع الشمس[32].

يرى أحد الباحثين أن هذه الشعائر ليست إلا من قبيل تجسيد الإله المعبود بصورة ناقة عيساء، فكوكب الصبح المشعشع يرمز عنه بالناقة العيساء الخالصة البياض، وعندما يصرون على شرب دم الناقة وأكل لحمها جميعا قبل غياب كوكب الصبح يرمزون إلى الاتحاد بالمعبود، أو يريدون تقمص الإله والاتحاد به[33].

وكانوا- أيضا- يذبحون ناقة في الميسر بمراسيم عقائدية، إذ لابدّ من حضور المحكم واسمه " الحُـرْضَة " وهو كاهن يتألّـه لم يأكل لحما قطُّ بثمن[34]. ولعل هذه الناقة تشكّل حقّاً إلـهيّاً حتى يُرضيَ المعبود، يقول عوف بن عطية يرضي الآلهة بزجر القداح في النوق السّمان[35]:

إمَّا تَـرَيْني قد كَبِرْتُ وَشَقَّني وَجَعٌ يُقَـرِّبُ في المَجالس عُوَّدِي

فلقدْ زَجَرْتُ القِدْحَ إذْ هَبَّتْ صَبَاً خَرْقَـاءُ تَقْذِفُ بالحِظارِ المُسْنَدِ

في الزَّاهِقاتِ وفي الحُمُولِ وفي التي أبْقَـتْ سَنَاماً كالغَـرِيِّ المُـجْسَـدِ

وكانوا يعللون تسمية العيوق والنجوم " القلاص " بهذين الاسمين في أسطورة تقول إن العيوق قد عاق الدبران لما ساق إلى الثريا مهرا، وهي نجوم صغار نحو عشرين نجما، فهو يتبعها أبدا خاطبا لها، ولذلك سمّوا هذه النجوم بـ " القلاص "[36].

الناقة والمطر:

ومن خلال منظر الصحراء المرعب، والحرارة المهلكة، نظر الإنسان الجاهلي إلى الماء بإكبار وتقديس، وأحاطه بصلواته وأدعيته، فاتخذ المطر في أذهانهم صورة المغيث من الهلاك، فسمّوه غيثًا، وصورة أصل الحياة فسمّوه حيّا، وصورة المنجي من العذاب فسمّوه رحمة، فلا عجب إذاً أن نشاهد هذا الترقب الجماعي لنزول المطر في الشعر الجاهلي، وقد عبر عنه الشعراء في قصائدهم، وهو تعبير عن الرغبة في المطر، وتعبير عن التوتر والقلق الذي يعانيه الإنسان الجاهلي من انحباس المطر، وهذا التوتر وليد الحدس الجماعي والشعور العام، والرغبة في ماء

الحياة[37].

ويعبر الأعشى عن تلك الرغبة، بقوله[38]:

يا مَنْ يَرَى عارضاً قدْ بتُّ أرقُبُهُ كأنّما البَرْقُ في حافاتِهِ الشُّعَلُ

عبيد بن الأبرص في قوله[39]:

يا مَنْ لِبَرْقٍ أبيتُ الليلَ أرقُبُهُ من عارضٍ كبَياض الصُّبْح لمّاح

ويكاد تصوّر الجاهليين للمطر يكون من المشكلات المعقدة، فقد ربطوا بين نزول المطر والمجاديح أو الأنواء، واستسقوا بها وجعلوا نزول المطر من فعلها[40].

وتصوروا دم الناقة المفصود من درّ نجم المجدح لذلك سمّوه بـ " المجدوح "[41] وأطلقوا على الرياح التي تلقح الغيث اسم" الحراجيج" و" النائجات" و" الرامسات "[42]، وهذه التسميات يطلقونها على الإبل وجاءت في شعرهم كثيرًا[43].

ولقد شبّه الشعراء الجاهليون السحاب بالنوق العشار أو النوق الحيال التي تلقحها رياح الغيث، قال أبو دؤاد الإيادي[44]:

وغيْثٍ توسَّن منهُ الرِّيا حُ جوناً عِشاراً وعوناً ثِقالا

إذا كَرْكَرَتْهُ رياحُ الجنو بِ ألقحْنَ منهُ عجافاً حيالا

وإنْ راحَ ينهضُ نَهْضَ الكسيـ ـرِ جأجأةَ الماءِ حتّى أسالا

كما يصور عبيد بن الأبرص الرياح وهي تحلب السحاب حلبا أو تمريه مريا، كما يحلب الأجير النوق، يبسّ لها حتى تدرّ عروق ضروعها، يقول[45]:

جَوْنٌ تُكَرْكِرُهُ الصَّبا وَهْناً وتَمْرِيهِ خَريقُهْ

مَرْيَ العَسِيفِ عِشَارَهُ حتّى إذا دَرَّتْ عُرُوقُهْ

ولعلّ ما يدلّ على قدسيّة الإبل من جانب آخر أنهم كانوا يقسمون بالإبل، والقسم عبارة عن التجاء الإنسان إلى مصادر القوة يحتمي بها، ويؤكد صلته بعالمها وانتماءه إليها[46]. بل إن القسم هو أعلى درجات التعلق الديني[47]. وكثيرًا ما يحلف الشعراء الجاهليون بربّ النوق التي تخبّ إلى بيت الله الحرام أيام الحجّ، يقول أوس بن حجر[48]:

حَلفْتُ بربِّ الدّامِياتِ نُحورُها وما ضَمَّ أجمادُ اللُّبَيْن وَكَبْكَبُ

ويقول طرفة بن العبد[49]:

حَلفْتُ برَبِّ الرّاقِصاتِ إلى مِنًى يُبَارِينَ أيَّامَ المشاعرِ والنَّهْضِ

والنابغة الذبياني في قوله[50]:

وَرَبِّ الرّاقِصاتِ بكلِّ سَهْبٍ بِشُعْثِ القوْمِ مَوْعِدُها الحُجونُ

وبشر بن أبي خازم يحلف قائلا[51]:

حَلفْتُ بربِّ الدّامياتِ نُحورُها وما ضَمَّ أجوازُ الجواءِ ومِدْنَبُ

وبالأدْمِ يَنْظُرْنَ الحِلالَ كأنّها بأكْوارِها وسْطَ الأراكةِ رَبْرَبُ

وكذلك الأعشى في قوله[52]:

حَلفْتُ بربِّ الرّاقصاتِ إلى مِنًى إذا مَحْرَمٌ جاوَزْنَـهُ بَعْدَ مَحْرَم

أساطير وطقوس عقدية:

ومن جانب آخر كان للعرب طقوس عقدية في الناقة، منها حبس البلايا، فقد كانوا إذا مات الرجل يشدّون ناقته إلى قبره، ويعكسون رأسها إلى ذنبها، ويغطّون رأسها بوليَّة وهي البرذعة، فإن أفلتت لم تُرَدَّ عن ماءٍ ولا مرعى، ويزعمون أنهم إنما يفعلون ذلك، ليركبها صاحبها في المَعاد، ليُحشر عليها، فلا يحتاج أن يمشي[53].

ويظهر هذا الطقس العقدي في شعر أبي زبيد الطائي، في قوله [54]:

كالبلايا رؤوسُها في الوَلايا مَانِحَاتِ السّمومِ حَرَّ الخُدودِ

ويصف أعرابي ما يترك على القبور من بلايا، ليُبعثَ من فيها راكبين يوم الحشر، يقول[55]:

فقلتُ لها سِيري فَمَا بكِ علّـة سَنَامُكِ مَلْحُومٌ ونابُكِ فاطـرُ

فمثْلَكِ أو خيراً تركتُ رذيَّة تقلّبُ عَيْنَيْها إذا مرَّ طائرُ

كما كانوا يوصون أبناءهم بالبلايا، خوفا من أن يعثروا في الحشر راجلين، يقول عويمر النبهاني[56]:

أبُنَيَّ لا تَنْسَ البليَّة إنَّها لأبيكَ يَوْمَ نُشُورِهِ مَرْكُوبُ

وعند جريبة بن الأشيم الأسدي، وقول الفقعسي يوصي ولده[57]:

يا سعدُ إمَّا أهلكنَّ فإنّني أوْصِيكَ إنَّ أخا الوصاةِ الأقـرَبُ

واحْمِلْ أباكَ على بَعيرٍ صالحٍ وابْغِ الخطيئة إنَّهُ هو أصْوَبُ

ولعلَّ لي مِمَّا تركتُ مَطِيَّة في الحَشْرِ أرْكَبُها إذا قِيلَ: ارْكَبُوا

وشبّه مطرود بن كعب النائحات اللاتي يبكين بالبلايا[58]:

يا عيْنُ فابكي أبا الشعثِ الشَّجِيَّاتِ يَبْكِينَهُ حسَّراً مثلَ البَلِيَّاتِ

ويستدل بعض الباحثين من " البلية " على إيمان الجاهليين بالبعث والحشر بالأجساد بعد الموت، أو هو مذهب من كان يقول منهم بالبعث وهم الأقل[59].

وقد عرفت ميثولوجيا الشعوب القديمة أمثال هذه المعتقدات، فربما دفنوا مع الميت أمواله وطعامه وشرابه، وربما ذبحوا عبيده[60]. ...

وفي معجزات بعض الأنبياء تأخذ الإبل صورة أسطورية، ففي القرآن الكريم قصة قبيلة ثمود عندما طلبت من نبيها صالح، عليه السلام، معجزة تكون دليلا على صدق نبوته. .. فطلبوا منه أن يُخرج لهم الناقة من الصخرة فأخرجها وجعل لها شرب يوم ولهم شرب يوم، وكانت تحلب لهم وترويهم فعقروها، ودخل سقبها الصخرة، وقيل إنه رُفع إلى السماء، فأخذتهم الرجفة وأصبحوا في ديارهم جاثمين. وقد ضربوا الشؤم بعاقر تلك الناقة، وجاء ذلك في شعر زهير بن أبي سلمى[61]:

فتُنْتَجْ لكم غِلمانَ أشأمَ كلُّهُمْ كأحْمَرِ عادٍ ثَمَّ تُرْضِعْ فتَفْطِمِ

وقد وظف الشعراء حادثة هذه الناقة وسقبها في أشعارهم، قال علقمة بن عبدة[62]:

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقْبُ السّماءِ فَدَاحصٌ بشِكَّتِهِ لم يُسْتَلَبْ وسَلِيبُ

كَأنَّهُمُ صابَتْ عليهم سحابة صَوَاعِقُها لطيْرِهنَّ دبيبُ

وقال متمم بن نويرة [63]:

سُقوا بالعقار الصِّرف حتى تتابعوا كدأبِ ثمود إذ رَغا بَكْرهم ضحى

وقال أبو كبير الهذلي[64]:

وإذا الكُماةُ تَعَاوَروا طَعْنَ الكُلى نَذْرَ البكارَةِ في الجَزَاءِ المُضْعَفِ

وَرَغَا بهمْ سَقْبُ السَّماءِ وَخُنِّقَتْ مُهَجُ النُّفُوس بكارِبٍ مُتَزَلَّق

ويستلهم مالك بن خالد الخناعي لقضية الموت والفناء في ساحة المعركة حادثة الناقة وسقبها، يقول[65]:

فَمَا ذَرَّ قَرْنُ الشَّمْس حتّى كأنّهُمْ بذاتِ اللّظى خُشْبٌ تُجَرُّ إلى خُشْبِ

كأنَّ بذي دَوْرَانَ والجِزْعِ حَوْلَهُ إلى طَرَفِ المِقْراةِ راغية السَّقْبِ

ولقد كان من مذاهب العرب في الإبل اعتقادهم أن أعطان الإبل خُلقت من أعنان

الشياطين[66]. وأن الحوش من الإبل التي قد ضربت فيها فحول إبل الجنّ. والحوشيّة من نسل إبل الجنّ – أيضا-، والعِيديّة، والمَهْريّة، والعَسْجديّة، والعُمانيّة قد ضربت فيها الحوش كذلك[67].

وأطلقوا على الإبل الشديدة النّفار اسم الإبل " الجِنَّة " معتقدين أنّ الجِنَّان قد ركبتها[68]. وفي قول لبيد بن ربيعة يظهر ما يدل على اعتقادهم هذا[69]:

دَرَى باليَسَارَى جِنَّة عَبْقريَّة مُسَطَّـعَة الأعناق بُلـقَ القـوادِمِ

كما زعموا أن الحيّة كانت في صورة جمل فمُسِخت، وفي ذلك يقول عدي بن زيد العبادي[70]:

فكانتِ الحيّةُ الرَّقشاءُ إذْ خُلقتْ كما ترى ناقة في الخَـلـق أو جملا

والحية مشهورة في الأساطير القديمة، فهي التي التهمت نبتة الخلود في ملحمة جلجامش[71]. والحية هي التي التهمت لعاب الإله " رع " في الأساطير الفرعونية.

وكان الصنم "ود" الذي يرمز إلى القمر عند " المعينيين " يوصف بأنه " نحس طب " بمعنى الحية الطيبة [72]. ورمز كذلك " السبئيون " لإلههم الأكبر بالحية- أيضا-[73].

وكان الجاهليون يعتقدون أن من يتعرض للحية بأذى سيحيق به المرض، أو الجنون وفي الشعر الجاهلي قرنوا جمجمة الناقة بالأفعى الحارية، يقول ابن مقبل واصفا الإبل وورودها الماء[74].

تُقَسِّمُ أدْنِبَة بَيْنَها فـنُرْسِلُـها عَرَكاً أو رسالا

كأنَّ حَنَاتِـمَ حارِيةٍ جَمَاجِمُها إذْ مَسِسْنَ ابْتِلالا

وأطلقوا على الناقة الغليظة الصـُّلبة الوثيقة. .. اسم العنتريس، والعِتريس هو الغـُول الذَّكرُ، وكذلك الداهية[75]. يقول الأعشى واصفًا ناقته[76]:

وفَلاةٍ كأنّها ظَـهْرُ تُـرْسٍ ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقُ

قد تجاوزْتُها وتحْتي مَرُوحٌ عَنْتريسٌ نَعـَّابة معْناقُ

كما أطلقوا على الناقة الصلبة، اسم عَيْسَجور، وسُمّيت السـِّعلاة عَيْسَجُورا[77].

ومن أساطيرهم في الجاهلية أنهم كانوا إذا طالت علـّة الواحد منهم وظنوا أن به مسـّاً من الجنّ، لأنه قتل حيّة أو يربوعًا أو قنفذًا (وهي من مراكب الجن كما يزعمون)، عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملأوها حنطة وشعيرًا وتمرًا، وجعلوا تلك الجمال في جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس، وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين، فإذا رأوا أنها بحالها قالوا لم

تقبل الدية فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدّد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدفّ[78].

كما زعموا أن من أصيب بـ (الهُدَبد) وهو العشا يكون في العين، عمد إلى سنام فقطع منه قطعة ومن الكبد قطعة وقلاهما، وقال عند كلّ لقمة يأكلها بعد أن يمسح جفنه الأعلى بسبّـابته[79]:

فيا سناماً وكَبدْ ألا اذْهبا بالهُدَبدْ

ليس شفاءُ الهُدَبدْ إلا السَّنام والكبِدْ

وقال آخر مؤكدًا على الفكرة نفسها[80]:

إنَّـهُ لا يُبْرِئُ دَاءَ الهُدَبدْ مِثْلُ القلايا مِنْ سَنامٍ وكَبدْ

وبذا قامت الناقة بدور خطير في الحياة الجاهلية لا سيما الدينية منها، فلم يُكتفَ بها حيوانًا للركوب أو الطعام فحسب، بل دخلت في أعمق القضايا الكونية وهي قضية الدين والإيمان، وشكلت بالنسبة للإنسان الجاهلي نافذة إيمانية ينظر من خلالها إلى مجريات الكون ويفسر بها ما عجز عقله البسيط عن تفسيره، ويمارس من خلال نظرته تلك بعض طقوسه الشعائرية المقدّسة كما سبق في الدراسة، فغدت الناقة معبودًا عند بعضهم أو رمزًا للمعبود عند بعضهم الآخر. كما جاءت الناقة مرتبطة بالعنصر المقدس للحياة في المجتمع الجاهلي وهو المطر الذي كان يشكل عصب الحياة للإنسان الجاهلي فوظف الشعراء الثنائي المقدّس وربطوا بينهما ؛ دلالة على القدسية التي يشكلها هذان العنصران في الحياة الجاهلية. فضلا عن بعض العادات الاجتماعية والمعتقدات في الإبل التي كان يعتقدها الإنسان الجاهلي أسطورةً وطقساً، ما زال بعض منها حتى يومنا هذا يشكّـل جزءًا من الثقافة الشعبية المحلية للمجتمعات البدوية الرعوية في مجتمعاتنا العربية.

الهوامش:

1- انظر : أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص15 ، دار العلوم ، الرياض 1983م . سورة الغاشية ، الآية (17) .

2- الأصفهاني ، أبو الفرج علي بن الحسين (ت 356هـ / 967م) : الأغاني ، شرح ، عبد علي مهنا وسمير جابر ، ج17 ، ص250 ، دار الكتب العلمية ، بيروت . وانظر : السهيلي ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت 581هـ / 1185م) : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام ، ج4 ، ص227 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت 2000م .

3 انظر القصة : ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد (328هـ / 939م) : العقد الفريد ، تحقيق أحمد أمين وآخرين ، ج5 ، 205 - 206 ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مصر 2004م .

4 المصدر السابق ، ج5 ، ص206 .

5 نفسه ، ج5 ، ص206 .

6 ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت 456هـ / 1064م) : جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، ص169 ، دار المعارف ، مصر 1382هـ .

7 محمد عبد المعيد خان ، الأساطير والخرافات عند العرب ، ص107 ، ط4 ، دار الحداثة ، بيروت 1982م .

8 الأصفهاني ، ج16 ، ص407 - 408 .

9 أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص236 .

10 المائدة ، الآية 3

11 .الأنعام ، الآية 139 .

12 ابن النديم ، محمد بن إسحاق بن منذر (ت 367هـ / 977 م) : الفهرست ، ص457 ، دار المعرفة ، بيروت 1997م .

13 انظر : أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص250 . ومحمود الحوت ، في طريق الميثولوجيا عند العرب ، ص86 وما بعدها والحاشية رقم 1 ، ص87 ، ط3 ، دار النهار ، بيروت 1983م .

14 انظر : إبراهيم عبد الرحمن ، الشعر الجاهلي ، قضاياه الفنية والموضوعية ، ص25 - 29 ، مكتبة الشباب ، القاهرة 1979م .

15 جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج6 ، ص54 ، ط2 ، بغداد 1993م .

16 انظر : الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن (القرن السادس) : مجمع البيان في تفسير القرآن ، تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي وفضل الله اليزدي الطباطبائي ، ج9 ، دار المعرفة ، بيروت . وهناك نصوص تصرح بأن بني كنانة قد عبدت القمر . انظر في ذلك : الآلوسي ، محمود شكري ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج2 ، ص240 ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

17 النجيرمي ، أبو إسحاق إبراهيم بن عبدالله بن محمد (القرن الرابع) : أيمان العرب في الجاهلية ، تحقيق محب الدين الخطيب ، ص18 .

18 اليعقوبي ، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب (292هـ / 904م) : تاريخ اليعقوبي ، ج1 ، ص218 ، دار الكتب العلمية ، بيروت 2002م .

19 جواد علي ، ج6 ، ص238 .

20 محمد نعمان الجارم ، أديان العرب في الجاهلية ، ص187 ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة 2006م . وانظر للزيادة والتفصيل : جواد علي ، ج6 ، ص60 وما بعدها . والحوت ، ص97 وما بعدها .

21 ابن الأجدابي ، أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل (ت نحو 470هـ / 1077م) : الأزمنة والأنواء ، تحقيق عزة حسن ، ص72 - 73 ، ط2 ، منشورات وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية ، المغرب 2006م .

22 والقطوع : مفردها : قِطْع ، وهو الطِّنْفِسة تكون تحت الرّحل على كتفي البعير . ديوانه ، تحقيق عبد الحفيظ السطلي ، ص360 ، ط2 ، دمشق .

23 الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت 1205هـ / 1790م) : تاج العروس ، مادة : لطم ، ج33 ، تحقيق إبراهيم الترزي ، الكويت 2000م .

24 أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص257 .

25 الأصفهاني ، ج17 ، ص250 . والسهيلي ، ج4 ، ص227 .

26 جواد علي ، ج6 ، ص60 . ومحمد نعمان الجارم ، ص240 .

27 أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص257 .

28 المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين ، (ت 421هـ / 1030م) : الأزمنة والأمكنة ، تحقيق محمد نايف الدليمي ، ج2 ، ص293 ، ط1 ، عالم الكتب ، بيروت 2002م .

29 جرير بن عبد المسيح ، ديوانه ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، ص82 .

30 ديوانه ، تحقيق حسين نصار ، ص96 ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1957م .

31 ديوانه ، تحقيق صلاح الدين الهادي ، ص143 ، دار المعارف ، القاهرة .

32 لويس شيخو ، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ، ص16 ، ط2 ، دار المشرق ، بيروت 1989م .

33 أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص259 .

34 النويري ، شهاب الدين بن أحمد بن عبد الوهاب (ت 733هـ / 1332م) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج3 ، ص118 ، دار الكتب ، مصر .

35 الأصمعي ، عبد الملك بن قريب (ت 216هـ / 831م) : الأصمعيات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، ص170 ، ط5 ، دار المعارف ، مصر .

36 الآلوسي ، ج2 ، ص239 ، وعليه قول الشاعر : أمّا ابنُ طوْقٍ فقدْ أوْفَى بِذِمَّتِهِ كما وفَّى بقِلاصِ النّجْمِ حاديها . وانظر : ابن الأجدابي ، ص71 . وجواد علي ، ج6 ، ص20 .

37 انظر : أنور أبو سويلم ، المطر في الشعر الجاهلي ، ص33 و ص39 ، ط1 ، دار عمّار ، عمّان ، دار الجيل ، بيروت 1987م .

38 ميمون بن قيس ، ديوانه ، تحقيق محمد حسين ، ص57 ، مكتبة الآداب ، مصر .

39 ديوانه ، ص34 .

40 الزبيدي ، مادة : جدح ، ج6 ، تحقيق حسين نصار ، الكويت 1994م . وأنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص260 .

41 انظر : الزبيدي ، مادة : جدح ، ج6 . وأنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص261 .

42 انظر : الزبيدي ، مادة ، حرج ، ج5 ، تحقيق مصطفى حجازي ، الكويت 1969م . ومادة : نأج ، ج6 ، تحقيق حسين نصار ، الكويت 1994م . وأنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص261 .

43 انظر : أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ص261 .

44 جارية بن الحجاج ، ديوانه ، ضمن كتاب دراسات في الأدب العربي ، تحقيق غوستاف فون غرنباوم ، ترجمة إحسان عباس وآخرين ، ص231 ، مكتبة الحياة ، بيروت 1959م .

45 ديوانه ، ص89 .

46 مصطفى ناصف ، قراءة ثانية لشعرنا القديم ، ص87 ، دار الأندلس ، بيروت .

47 نصرت عبد الرحمن ، الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، مكتبة الأقصى ، الأردن 1976م .

48 ديوانه ، تحقيق محمد يوسف نجم ، ص7 ، دار صادر ، بيروت .
ديوانه، تحقيق درية الخطيب ، ولطفي الصقال ، ص170 ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق 1975م49.

50 زياد بن معاوية بن ضباب ، ديوانه ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ص222 ، ط3 ، دار المعارف .

51 ديوانه ، تحقيق عزة حسن ، ص8 ـ 9 ، ط2 ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق 1972م . والحِلال : القوم المقيمون المتجاورون .

52 ديوانه ، ص123 .

53 النويري ، ج3 ، ص121 . وانظر : الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548هـ / 1153م) : الملل والنحل ، تحقيق محمد بن فريد ، ج2 ، ص232 ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة .

54 ، شعره ، تحقيق ، ص56 .

55 الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255هـ / 868م) : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج3 ، 306 ـ 307 ، دار الجيل ، بيروت .

56 الآلوسي ، ج2 ، ص309 .

57 الشهرستاني ، ج2 ، ص231 . وانظر : الألوسي : ج2 ، 309 . وجواد علي ، ج6 ، ص129 ـ 130 .

58 محمد نعمان الجارم ، ص133 . وانظر : أبو دؤاد الإيادي ، ديوانه ، ص290 ، ولبيد بن ربيعة العامري ، ديوانه ، تحقيق إحسان عباس ، ص319 ط2 ، الكويت 1984م .

59 جواد علي ، ج6 ، ص129 .

60 انظر تفاصيل ذلك: حمود الدغيشي، الخيل في الشعر الجاهلي، ص26 وما بعدها، ط1، دار جرير، عمّن 2007م.

61 شرح شعره ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ص28 ، ط1 ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

62 ديوانه ، تحقيق لطفي الصقال ، درية الخطيب ، ص46 ، دار الكتاب العربي ، حلب .

63 مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي ، مجموع شعرهما ، تأليف ، ابتسام الصفار ، ص83 ، مطبعة الإرشاد ، بغداد 1968م .

64 السكري ، أبو سعيد الحسن بن الحسين (275هـ / 888م) : شرح أشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، ج3 ، ص1087 ـ 1088 ، دار العروبة القاهرة .

65 المصدر السابق ، ج1 ، ص466 .

66 الجاحظ الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، ص152، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1969م.

67 المصدر السابق ، ج6 ، ص216 .

68 أنور أبو سويلم ، الإبل في الشعر الجاهلي ، ص248 .

69 ديوانه ، ص295 .

70 ديوانه ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، ص159 ،دار الجمهورية ، بغداد 1965م .

71 جواد علي ، ج6 ، ص295 .

72 جواد علي ، ج6 ، ص295 .

73 المصدر السابق ، ج6 ، ص255 .

74 والحناتم : جمع حنتم ، وهو الأسود هاهنا . والحارية : الأفعى التي قد كبرت ونقص جسمها من الكبر ، ولم يبق إلا رأسهاونفَسها وسمّها . تميم بن أبي ، ديوانه ، تحقيق عزة حسن ، ص230 ، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، دمشق 1962م .

75 الزبيدي ، مادة : عترس ، ج16 ، تحقيق محمود الطناحي ، الكويت 2004م .

76 ديوانه ، ص211 .

77 الزبيدي ، مادة : عسجر ، ج13 ، تحقيق محمود الطناحي ، الكويت 2004م .

78 الألوسي ، ج2 ، 358 .

79 الآلوسي ، ج2 ، ص340 . وجواد علي ، ج6 ، ص810 .

80 الزبيدي ، مادة : هدبد ، ج9 ، تحقيق عبد الستار فراج ، الكويت 1971 .